﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ١٥ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٦﴾ [المائدة: 15 - 16]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِمَا قَبْلَهُما:

نـــداءُ أهـــلِ الـكـتـابِ إلى عنوانِ هدايتِهم وسعادتِهم بعد بيانِ حالِهم

بَعْدَ أَنْ ذَكَرَ مِنْ أَحْوَالِ فَرِيقَيِ أَهْلِ الكِتَابِ وَأَنْبَائِهِمْ مَا لَا يَعْرِفُهُ غَيْرُ عُلَمَائِهِمْ، وما لَا يَسْتَطِيعُونَ إِنْكَارَهُ، أَقْبَلَ عَلَيْهِمْ بِالخِطَابِ بِالمَوْعِظَةِ؛ إِذْ قَدْ تَهَيَّأَ مِنْ ظُهُورِ صِدقِ الرَّسُولِ ﷺ مَا يُسَهِّلُ إِقَامَةَ الحُجَّةِ عَلَيْهِمْ، فأقبَلَ عليهم واعظاً مناديًا متلطّفًا مُستعطفًا مرغّبًا في اتِّباعِهِ والإيمانِ بالكِتابِ الهادي الذي أُنْزِلَ عَلَيْهِ[1].

ولَمَّا كانت هدايتُه مَشْروطَةً بِشَرْطِ صلاحِ الجِبِلَّةِ، بَيَّنَ ذَلِكَ بقولِه واصفًا له: ﴿يَهْدِي بِهِ﴾؛ أَيْ: الكِتابِ[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَيَعْفُواْ﴾: مِنَ العَفْوِ، وهو التَّجاوُزُ، يُقَالُ: عَفَا يَعْفُو عَفْواً، فَهُوَ عافٍ وعَفُوٌّ، وأَصلُه يدلُّ عَلَى تَرْكِ الشَّيْءِ، والمعنى هُنا: يَتْرُكُهُ وَلَا يُبَيِّنُهُ، وَإِنَّمَا يُبَيِّنُ مَا فِيهِ حُجَّةٌ عَلَى نُبُوَّتِهِ[3].

2) ﴿سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾: طُرُقَ السَّلامَة، والسُّبُلُ جَمْعُ سبيل، وهو الطَّريقُ الذي فيه سُهولَةٌ، وأَصْلُ سَبَلَ يَدُلُّ عَلَى إِرْسَالِ شَيْءٍ مِنْ عُلُوٍّ

(1) ابْنُ عادِلٍ، اللُّباب: 7/258، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/150، والبِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 6/62.
(2) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 6/63.
(3) الرَّاغِب، المُفْرَدات، والسَّمين، عُمْدَةُ الحُفَّاظ، وابْنُ فارِسٍ، مَقاييسُ اللُّغَة: (عفو)، وابْنُ مَنْظورٍ، لِسانُ العَرَب: (عفا)، والقُرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 6/118.

إِلَى سُفْلٍ، وأصلُ سَلِمَ يَدُلُّ على العافية والسَّلامةِ منَ الأذى، ومَعْنى سُبُلِ السَّلامِ هُنا: طُرُقُ السَّلامَة المُؤَمِّنَةُ منَ العُقوبَةِ، أَوْ طُرُقُ اللّه، وهي دِينُهُ[1].

3) ﴿صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾: الطَّريقُ المُسْتَقيمُ، وأَصْلُ الصِّراط بالسِّين، مِنْ قَوْلِهم: سَرَط الرَّجلُ الطَّعامَ؛ إِذَا بلَعَهُ، ويُقال: انْسَرَطَ الشَّيْءُ في حَلْقِهِ؛ إِذَا سَارَ فيه سَيْرًا سَهْلًا، وَمِنْهُ سمِّيَ السِّراطُ؛ وذلك على وجهِ التَّخْييلِ؛ لأنَّه يَبْتَلِعُ سالكِيه، أو أنَّ سَالِكيه يبتلعُونَهُ، والصِّراطُ: الطَّريقُ مُطْلَقًا، أَوِ الطَّريقُ القاصدُ، والمِنْهاجُ الواضحُ، والمعنى هُنا: طريقٌ وَاضحٌ، وَهُوَ الإِسْلَام[2].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

يا أهلَ الكتابِ منَ اليهودِ والنَّصارَى، قد جاءكم رَسولُنا محمَّد ﷺ يُظْهِرُ لكم كثيرا ممَّا كنتم تَكْتُمُونَهُ عنِ النَّاس ممَّا في التَّوراة والإنجيل، ويَدَعُ كثيرًا ممَّا أخفيتُمُوه ممَّا لم تَدْعُ الحاجةُ إلى إِظْهارِهِ، قَدْ جاءَكم القُرْآنُ كتابًا من عند اللّه، وهو نورٌ يُسْتضاءُ بِهِ، وكِتابٌ مُبينٌ لِكُلِّ ما يَحْتاجُ إليه النَّاسُ في شؤونِهم الدُّنيويَّةِ والأخرويَّةِ، يَهْدِي اللّه بهذا الكتابِ منِ اتّبع ما يرضِيه منَ الإيمان والعملِ الصَّالح إلى طُرقِ السَّلامةِ والأمنِ مِنْ عذاب اللّه، وهي الطُّرُقُ المُوصِلَةُ إلى الجنَّة، ويُخْرِجُهُمْ من ظُلُماتِ الكُفْرِ والمعصيةِ إلى نور الإيمانِ والطَّاعةِ بِإِذْنِه، ويُوَفِّقُهُمْ إلى الطَّريقِ القويمِ المستقيمِ طَريقِ الإسلام[3].

جاء النَّبيُّ ﷺ هاديًا ونُورًا للأمم، ومُخرجًا لهم منَ الظُّلماتِ إلى النُّورِ

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

فنُّ الالتفاتِ منَ الغَيْبَةِ إلى الخِطابِ:

فقولُهُ ﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ فيه التفاتٌ من ضمائر الغيْبة إلى

دعوتُهم للإيمان بِذِكْرِ الامتنانِ عليهم ببعثةِ النَّبيِّ العدنانِ

(1) الرَّاغِب، المُفْرَدات، والسَّمين، عُمْدَةُ الحُفَّاظ، وابْنُ فارِسٍ، مَقاييسُ اللُّغَة: (سبل)، وابنُ عزيز، غَريبُ القُرْآن، ص: 275، وابن الهائم، التبيان، ص: 149.

(2) ابن دُريد، جمهرة اللّغة: (رسط)، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (سَرَطَ)، والواحديّ، الوسيط: 2/68، والرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/63، وابن عزيز، غَريبُ القُرْآن، ص: 310.

(3) لَجْنَةٌ مِنْ عُلَماءِ الْأَزْهَر، المُنْتَخَب، ص: 148، ونُخْبَةٌ مِنْ أَساتِذَةِ التَّفْسير، التَّفْسيرُ المُيَسَّر، ص: 110، وجَماعَةٌ مِنْ عُلَماءِ التَّفْسير، المُخْتَصَر، ص: 110.

ضمير الخطاب في نداء الفَريقَين اليهودِ والنَّصارى[1]، إثرَ بيانِ أَحْوالِهما منَ الخيانة وغَيْرِها من فُنونِ القبائِحِ، وفي هذا الخطابِ دَعْوَةٌ لهم إلى الإيمان بَرَسولِ الله ﷺ والقرآنِ[2].

سِرُّ ندائِهم بِأَهْلِ الكتابِ:

بيانُ شَرَفِ الانتسابِ إلى الكتابِ وقُبْحِ مُخالفتِه وتركِ ما فيه

ففي ندائِهم بـ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ تَشْريفٌ لهم بإضافتِهم للكتاب، وبَعْثٌ لهم على قَبولِ ما جاء به مُحَمَّدٌ ﷺ؛ لأنَّه جاء بكتابٍ وهُمْ أهلُ الكتابِ، واحتجاجٌ عليهم بأنَّ الإيمانَ بالكتابِ الذي عِنْدَهُمْ يَقْتضي الإيمانَ بالكتابِ الذي جاء به؛ لأنَّه من جِنْسِهِ[3].

كما أنَّ في إيرادهم بعنوانِ أهليَّة الكتاب تشنيعًا عليهم أيضًا، فَيَقبُحُ بمن كان أهلًا للكتابِ وتشرَّفَ بالانتساب إليه أن يخالفَه، فإنَّ أَهليَّة الكتابِ من مُوجباتِ مُراعاتِه والعملِ بمقتضاه وبيانِ ما فيه منَ الأحكام، وقد فَعَلُوا منَ الكَتْمِ والتَّحْريفِ ما فَعَلُوا وهُمْ يَعْلَمونَ[4].

الغرَضُ من توحيدِ لفظةِ ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾:

بيانُ أنَّ المُرادَ جنسُ الكتابِ

ووحَّد لفظةَ الكِتاب مع أنَّ لكلِّ فريقٍ كِتابًا؛ لأنَّه أرادَ جِنسَ الكِتابِ[5]؛ لأنَّ الكتاب جِنْسٌ شاملٌ للتَّوراة والإنجيل.

فائدةُ إضافةِ لفظِ الرَّسول إلى نونِ العظمةِ:

تعظيمُ قَدْرِ النَّبيِّ ﷺ وبيانُ شُمولِ رسالتِه

فالتَّعبيرُ عنه بذلك مع الإضافة إلى ضميرِ العظمةِ للتَّشريف والإيذانِ بوجوبِ اتِّباعه[6] ﷺ، وفيه رَدٌّ صريحٌ على أهل الكتَاب في قَوْلِهِمْ إنَّ مُحَمَّدًا ﷺ مبعوثٌ إلَى العربِ خاصَّةً[7].

فلمَّا أَرْسَلَ الله نبيَّنا محمَّدًا ﷺ كان الخلقُ قِسْمَيْنِ: أهلُ كتابٍ

(1) الزَّمَخْشَرِيّ، الكَشَّاف: 3/271، وأبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 3/17، والقِنَّوْجيّ، فَتْحُ البَيان: 3/378.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 3/17.
(3) ابن باديس، مجالس التذكير، ص: 327.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 3/17، والآلوسّي، روحُ المعاني: 3/268.
(5) البَيْضاويّ، أَنْوارُ التَّنْزيل: 2/118، والقِنَّوْجيّ، فَتْحُ البَيان: 3/378، والرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/326.
(6) الآلوسّي، روحُ المعاني: 3/268.
(7) القُونَويّ، حاشيةُ القُونَويّ على البيضاوي: 7/426.

- وهم اليهودُ والنَّصارى-، وغَيْرُهُمْ، وكان أَشْرَفَ القِسمَيْنَ أَهْلُ الكتاب؛ بما عندهم منَ النَّصيب مِنَ الكتاب الذي أُوتوهُ على نسيانِهم حظًّا منه، وتحريفِهم لِمَا حرَّفوا، وكانوا أَوْلى القِسْمَيْنِ باتِّباع محمَّدٍ ﷺ بما عَرَفُوا قَبْلَهُ منَ الكُتب والأنبياء؛ فَلِهَذا وذاك كانت تُوَجَّهُ إليهم الدَّعوةُ الخاصَّةُ بمثل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا﴾[1].

فالإضافة هُنا للتَّشريف، والإيذانِ بوُجوبِ اتِّباعِه[2].

سِرُّ إيثارِ الجُملةِ الفعليَّةِ:

فجملةُ ﴿يُبَيِّنُ لَكُمۡ﴾ حالٌ من ﴿رَسُولُنَا﴾، وإيثارُ الفعليَّة على غيرها للدَّلالَةِ على الاستمرار التَّجدُّدِيِّ للبيان؛ أي: قد جاءكم رسولُنا حالَ كونِه مُبَيِّنًا لكم على سبيل التَّجدُّدِ والتَّدريجِ حَسْبَما تَقْتَضيه المصالحُ والوقائعُ منَ الكتاب[3].

استمرارُ البيان بِحَسَبِ الوقائع والحوادث وتَجَدُّدُه

نُكْتَةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ على لفظِ (كثير) في ﴿يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا﴾:

وتأخيرُ ﴿كَثِيرٗا﴾ عن الجارِّ والمَجْرورِ لإظهارِ عنايةٍ بالمُقَدَّم لما فيه من تعجيلِ المسرَّةِ والتِّشويقِ إلى المؤخَّر؛ لأنَّ ما حقُّه التَّقديمُ إذا أُخِّرَ، لا سيما الإشعارُ بكونِه من منافعِ المخاطَب، تبقَى النَّفسُ مُتَرَقِّبَةً إلى وُرودِهِ فَيَتَمَكَّنَ عِنْدَها إذا وَرَدَ فَضْلُ تَمَكُّنٍ، ولأنَّ في المُؤَخَّرِ دَرْبَ تَفْصيلٍ ربَّمَا يُخِلُّ تقديمُه بتَجاذُبِ أَطْرافِ النَّظْمِ الكَريم[4].

إظهارُ العنايةِ بالمُقَدَّمِ، وتعجيلُ المَسَرَّةِ بتقديمِه، والتَّشويقُ إلى تفصيلِ ما تأخَّرَ

وأفاد هذا التّنكير في ﴿كَثِيرٗا﴾ معاني التّكثير والتّعظيم.

دلالةُ الجمْعِ بين صيغةِ الماضي والاستقبالِ في قوله: ﴿مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ﴾:

فَالجَمْعُ بَيْنَ صيغَتَي الماضِي والمُسْتَقْبَلِ للدَّلالَةِ على استمرارِهِمْ

(1) ابن باديس، مجالس التذكير، ص: 327.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 3/17.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 3/18، والآلوسّي، روحُ المعاني: 3/268، والقُونَويّ، حاشيةُ القُونَويّ على البيضاوي: 7/426.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 3/18، والآلوسّي، روحُ المعاني: 3/269.

على الكَتْمِ والإخْفاءِ؛ أيْ: بَيَّنَ لَكُمْ كَثِيرًا مِنَ الذي تُخْفونَهُ على الاستمرار حالَ كَوْنِهِ منَ الكِتابِ الذي أنتم أَهْلُهُ والمُتَمَسِّكونَ بِهِ[1]، ومن ذلك نَعْتُ النَّبيِّ ﷺ وآيةُ الرَّجْمِ، وبِشارَةُ عيسى بِأَحْمَدَ - عليهما الصَّلاةُ والسَّلام -[2]، ودلّ استعمال الاسم الموصول (ما) وما فيه من معاني الإبهام والعموم على عظم ما كانوا يخفونه.

بيانُ استمرارِ الكَتْمِ والإخفاءِ من أهلِ الكتاب وتَأَصُّلِهِ فيهم

توجيهُ ذكْرِ العَفْوِ بَدَلَ الإخفاءِ في مُقابلِ ذِكْرِ البيان:

فقد وَصَفَ النَّظْمُ الكريمُ الرَّسُولَ ﷺ بِأَنَّهُ يُبَيِّنُ لَهُمْ كَثِيرًا مِمَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِنَ الكِتَابِ، ثُمَّ أَعْقَبَهُ بِأَنَّهُ يَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ، وَمَعْنَى يَعْفُو: يُعْرِضُ وَلَا يُظْهِرُ، وهو أَصْلُ مَادَّةِ العَفْوِ، يُقَالُ: عَفَا الرَّسْمُ، بِمَعْنَى لَمْ يَظْهَرْ، وَعَفَّاهُ: أَزَالَ ظُهُورَهُ، ومنه عَفَا اللهُ عَنِ المُذْنِبِ، بِمَعْنَى سَتَرَ عَنْهُ ذَنْبَهُ[3].

صيانتُهم عنِ الفضيحةِ وترهيبُهم من إخفاءِ الحقِّ وكتمانِه كما فعلَ أسلافُهم

والمعنى هُنا أي: ولا يُظهرُ كثيرًا ممَّا تُخْفُونَهُ إذا لم تَدْعُ إليه داعيةٌ دينيَّةٌ؛ صيانةً لكم عن زيادة الافتضاح كما يُفصحُ عنه التَّعبيرُ عن عدمِ الإظهار بالعَفْوِ، وفيه حَثٌّ لهم على عدم الإخفاءِ ترغيبًا وترهيبًا، فالجملةُ معطوفةٌ على الجملةِ الحاليَّةِ، داخلةٌ في حُكْمِها[4]، وهذا المعنى هو الأظهرُ والأقربُ لدَلالة السِّياق؛ لأنَّ الظَّاهرَ أن يكونَ هذا الكثيرُ كالكثير السَّابقِ الذي بُيِّنَ[5].

ويجوز أن يُراد هُنا مَعْنَى الصَّفْحِ وَالمَغْفِرَةِ؛ أَيْ: وَيَصْفَحُ عَنْ ذُنُوبٍ كَثِيرَةٍ؛ أَيْ: يُبَيِّنُ لَكُمْ دِينَكُمْ، وَيَعْفُو عَنْ جَهْلِكُمْ[6]، فيكونُ العفوُ الثَّاني غيرَ الأوَّل؛ لأنَّ النَّكرة إذا أُعيدت نَكِرَةً فهي مُتغايرةٌ[7].

(1) أبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 3/18.
(2) الآلوسّي، روحُ المعاني: 3/268.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/150.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 3/18، والآلوسّي، روحُ المعاني: 3/269.
(5) الآلوسّي، روحُ المعاني: 3/269.
(6) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/150.
(7) الخَفاجيّ، عناية القاضي: 3/225، والآلوسّي، روحُ المعاني: 3/269.

كما عدلَ بالعفو عن ذِكْرِ الإخفاءِ في مُقابلة ذكرِ البيان في هذا المقام؛ لما يَحْمِلُهُ الإخفاءُ من مَعْنى صورةِ الذَّمّ المَذْكُورِ سابقًا في قوله: ﴿كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ﴾ المُتَمَثِّلِ في جحْدِ الحقِّ وكِتْمانِهِ، فاختار النَّظمُ الكريمُ لفظةَ العَفْوِ؛ لِما تَحْمِلُهُ هذه اللَّفظةُ منَ المعاني الجَميلةِ والصِّفاتِ الجَليلَةِ.

دلالةُ الاستئنافِ في قوله ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ﴾ وغرض تنكير النّور:

﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ﴾: جملةٌ مُستأنَفةٌ مسُوقةٌ لبيانِ أنَّ فائدةَ مجيءِ الرَّسولِ ليستْ منحصرةً فيما ذُكِرَ، ومن بيانِ ما كانوا يُخفونَه، بل له منافعُ لا تُحصى[1]، وهذه الجملة بَدَلٌ مِنْ جُمْلَةِ ﴿قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا﴾ بَدَلُ اشْتِمَالٍ؛ لِأَنَّ مَجِيءَ الرَّسُولِ اشْتَمَلَ عَلَى مَجِيءِ الهُدَى وَالقُرْآنِ، فَوِزَانُهَا وِزَانَ (عِلْمُهُ) مِنْ قَوْلِهِمْ: نَفَعَنِي زَيْدٌ عِلْمُهُ؛ وَلِذَلِكَ فُصِلَتْ عَنْهَا، وَأُعِيدَ حَرْفُ ﴿قَدْ﴾ الدَّاخِلِ عَلَى الجُمْلَةِ المُبْدَلِ مِنْهَا زِيَادَةً فِي تَحْقِيقِ مَضْمُونِ جُمْلَةِ البَدَلِ؛ لِأَنَّ تَعَلُّقَ بَدَلِ الاِشْتِمَالِ بِالمُبْدَلِ مِنْهُ أَضْعَفُ مِنْ تَعَلُّقِ البَدَلِ المُطَابِقِ[2].

بيانُ منافعِ مجيءِ الرَّسُولِ ﷺ إليهم زيادةً عمّا ذُكِرَ

وقد تكون الجملة مستأنفة بيانيًّا جوابًا عن سؤال مقدّر عن ماهيّة ما جاء به الرّسول ﷺ ليبيّنه لهم.

فَهَذِهِ الجُمْلَةُ مُشْتَمِلَةٌ على بيان أنَّ محمدًا ﷺ قد تَضَمَّنَتْ بِعْثَتُهُ فَوائِدَ غَيْرَ ما تَقَدَّمَ مِنْ مُجَرَّدِ البيانِ[3]، ولِأَجْلِ هَذَا نُكِّرَتْ لَفْظَةُ ﴿نُورٌ﴾؛ لإرادة التَّعظيم والتَّفْخيم[4].

سِرُّ تقديمِ الجارِّ والمجرور على الفاعل:

وتقديمُ الجارِّ والمجرورِ ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ على الفاعِلِ ﴿نُورٌ﴾

بيانُ عُلُوِّ جِهَةِ الجائي والتَّشويقُ إِلَيْهِ

(1) أبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 3/18.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/151.
(3) القِنَّوْجيّ، فَتْحُ البَيان: 3/378.
(4) على مَنْ فَسَّرَ النُّورَ بأَنَّهُ رَسولُ الله ﷺ، ينظر: أبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 3/18، والآلوسيّ، روحُ المعاني: 3/269.

للتّخصيص؛ أي: منه، لا من غيره، وقد يكون للمُسارَعَةِ إلى بيانِ كَوْنِ المجيءِ من جِهته العاليةِ، والتَّشويقِ إلى الجائي[1].

بلاغةُ الاستعارةِ وبديعُ اللَّفِّ والنَّشْرِ المُرَتَّبِ[2]:

بيانُ أنَّ نُورَ النَّبيِّ ﷺ وبَيَانَهُ ونُورَ الكِتابِ الذي جاء بِهِ واحِدٌ

فالنُّورُ المُبينُ، هو نُورُ الأنوارِ والنَّبيّ المُخْتارِ ﷺ، الذي جاء بالهُدى ودينِ الحقّ ليبدّدَ ظلماتِ الشّركِ والوهْمِ، فيكونُ في الكلام استعارةٌ تصريحيَّةٌ؛ حيث صرّح بذِكْرِ المشبَّه به، وهو اسمٌ جامدٌ[3]، والعَطْفُ بعده ظاهرٌ، وقيل: عَنَى بالنُّورِ القرآنَ؛ لِكَشْفِهِ وإظهاره طُرُقَ الهُدى واليَقين، ولِمَا فيهِ مِنْ كَشْفِ ظُلُماتِ الشِّرْكِ والشَّكِّ، وإبانَةِ ما خَفِيَ على النَّاس منَ الحقِّ والإعجازِ البيِّنِ؛ وعليه فالعطفُ في قولِه تعالى: ﴿وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ لِتَنْزيلِ المُغايَرَةِ بالعُنْوانِ مَنْزِلَةَ المُغايَرَةِ بالذَّات، ودَليلُهُ تَكْريرُ قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿قَدْ جَآءَكُم﴾ بِغَيْرِ عاطِفٍ في الاسْتِئْنافِ السَّابِقِ، فَعَلَّقَ في الآيَةِ السَّابِقَةِ وَصْفَ الرَّسولِ، وهُنَا وَصَفَ الكِتَابَ[4]، وعلى هذا التَّأْويلِ يَكُونُ في الآيَةِ تَشْبيهُ القُرآن بالنُّور، ووجْهُ الشَّبَهِ فيه أَنَّهُ الكاشِفُ لِظُلُماتِ الشَّكِّ والضَّلالِ، والكِتَابُ الواضحُ الإعجازِ، والظَّاهرُ أنَّ الكَلَام على التَّشبيهِ لا الاسْتِعَارَةِ لِذِكْرِ المُشَبَّهِ بِهِ، وهو قولُه ﴿وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾[5].

فعلى تفسير النُّور بالقرآن يكون النُّورُ والكتابُ واحدًا، وتَسميتُه نورًا لكشفِه وإظهارِه طُرُقَ الهُدى واليقين، ويكونُ (المُبينُ) بمعنى (الظَّاهر) من (أَبَانَ) اللَّازم؛ أي: (ظَهَرَ)، وعلى تفسير النُّور بالنَّبيِّ ﷺ لِظُهُورِهِ بالمعجزات وإظهاره لِلْحَقِّ؛ فـ(المُبينُ) حينئذ

(1) أبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 3/18، والآلوسّي، روحُ المعاني: 3/269.

(2) هُوَ أَنْ يُذْكَرَ شَيْئَانِ أَوْ أَشْيَاء، إِمَّا تَفْصِيلاً بِالنَّصِّ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ أَوْ إِجْمَالاً بِأَنْ يُؤْتَى بِلَفْظٍ يَشْتَمِلُ عَلَى مُتَعَدِّدٍ، ثُمَّ يُذْكَرَ أَشْيَاءُ عَلَى عَدَدِ ذَلِك، كُلُّ وَاحِدٍ يَرْجِعُ إِلَى وَاحِدٍ مِنَ المُتَقَدِّم، وَيُفَوَّضُ إِلَى عَقْلِ السَّامِعِ رَدَّ كُلِّ وَاحِدٍ إِلَى مَا يَلِيقُ بِه، ينظر: القزوينيّ، الإيضاح، ص: 503، والسيوطيّ، الإتقان: 3/320.

(3) الدُرَّة، تفسير القرآن الكريم: 3/56.

(4) أبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 3/18، والآلوسّي، روحُ المعاني: 3/269.

(5) البَيْضاويّ، أَنْوارُ التَّنْزيل: 2/120، والقُونَويّ، حاشيةُ القُونَويِّ على البيضاوي: 7/426.

يَحتمل وجهَين؛ (الظَّاهِرُ)، و(المُظْهِرُ)، ولا تكرارَ فيه، فالمُراد بهما واحدٌ على التَّفسير الأوّل للنُّور، وكونُهما كالواحد في التَّفسيرِ الثَّاني فهو لَفٌّ ونَشْرٌ مُرَتَّبٌ[1]، فلا شَكَّ في صِحَّةِ إطلاق ﴿نُورٌ﴾ على النَّبيِّ - ﷺ - من باب العِبارةِ أو الإشارةِ، والمبينُ من (بان) اللازم، بمعنى ظهرَ، فمعناه: الظاهرُ الإعجازِ، ويجوز أن يكونَ منَ المتعدّي، فمعناه: المُظْهِرُ للنَّاس ما كان خافيًا عليهم[2].

فَمُحَمَّدٌ ﷺ والقُرْآنُ نورٌ وبيانٌ، في هذه الآية وَصْفُ مُحمَّدٍ ﷺ بأنَّهُ نُورٌ، ووصفُ القرآنِ بأنَّهُ مُبينٌ، وفي آياتٍ أُخرى وَصْفُ القُرْآنِ بأنَّهُ نُورٌ، كقوله: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ﴾ [التَّغابن: 8]، ووَصْفُ الرَّسُولِ بأنَّهُ مُبينٌ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ٤٤﴾ [النَّحل: 44].

وهذا لِيُبَيِّنَ لَنَا اللهُ تعالى أنَّ إظْهارَ النَّبيِّ ﷺ وبَيانَهُ، وإظهارَ القرآن وبيانَه واحدٌ؛ لأنَّ فِقْهَ القرآن يَتَوَقَّفُ على فقه حياةِ النَّبي ﷺ وسُنَّتِهُ، وفِقْهَ حياته ﷺ يَتَوَقَّفُ على القرآن، وفِقْهَ الإسْلام يَتَوَقَّفُ على فِقْهِهما.

فهذا نَبيُّنا ﷺ نُورٌ وبيانٌ، وهذا كِتابُنا نورٌ وبيانٌ؛ فالمسلمُ المؤمنُ بِهِمَا المُتَّبِعُ لَهُما لَهُ حَظُّهُ من هذا البَيانِ والهِدايَةِ[3].

دلالَةُ تَوْحيدِ الضَّميرِ وتقديمِه على المسنَدِ إليه في ﴿يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ﴾:

الاهتمامُ بالنُّورِ المُبينِ الخارِجِ من مِشْكاةٍ واحدَةٍ

فتوحيدُ الضَّميرِ في قوله: ﴿بِهِ﴾ مع أنَّه عائدٌ على ﴿نُورٌ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ﴾؛ لأنَّ المرادَ بالنُّورِ والكِتابِ المبينِ واحدٌ: (القرآنُ)، أو لأنَّهما كواحدٍ في الحُكمِ؛ إذا كان النورُ غيرَ الكِتابِ المُبينِ[4]، أو أريد بـ(يهدي) بما ذُكر[5].

لأنَّ مَحَلَّ الجُمْلَةِ الرَّفْعُ على أنَّها صِفَةٌ ثانيةٌ لـ﴿وَكِتَٰبٞ﴾، أو النَّصْبُ على الحاليَّةِ منه لِتَخْصيصِهِ بالصِّفَةِ، ويجوزُ أن تكونَ

(1) الخَفاجيّ، حَاشِيةُ الشِّهاب: 3/225.
(2) الآلوسّي، روحُ المعاني: 3/269.
(3) ابن باديس، مجالس التَّذكير، ص: 330.
(4) البَيْضاويّ، أَنوارُ التَّنْزيل: 2/119.
(5) أبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 3/18، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/151.

حالًا من ﴿رَسُولُنَا﴾ بَدَلًا من ﴿يُبَيِّنُ﴾، وأنْ تَكونَ حالًا من الضَّميرِ في ﴿يُبَيِّنُ﴾، وأنْ تكون حالًا منَ الضَّمير في ﴿مُّبِينٌ﴾، وأن تكون صِفَةً لـ﴿نُورٌ﴾، ولأجلِ هذا تَقَدَّمَ المَجْرورُ لِلاهْتمام؛ نَظَرًا إلى المقامِ وإظهارِ الاسم الجَليلِ؛ لإظْهارِ كَمالِ الاعْتِناءِ بِأَمْرِ الهِدايَةِ[1].

سِرُّ تَخْصيصِ الهِدايَةِ بأهلِ الاتِّباعِ:

بيانُ أنَّ الاتِّباعَ سَبَبُ هدايةِ التَّوفِيقِ

فَمِنَ المعلوم أنَّ الهِدايةَ نَوْعانِ: هدايةُ الدَّلالةِ والإرشادِ والبيانِ، وهي كما تَقَدَّمَ عامَّةٌ، وهدايةُ الدَّلالةِ والإرشادِ مع التَّوفيقِ والتَّسديدِ، فهي خاصَّة للذين اتَّبعوا ما جاء من عند الله، من رسولِه وكتابِه، وكانوا باتِّباعهم لها مُتَّبِعينَ لِرضوانِه، المُقْتَضي لِقَبولِهِ مَثوبَتَهُ وكرامَتَهُ لهم، فَلَمْ يَتَّبِعوا أَهْواءَهُمْ ومَأْلوفاتِهِمْ وما أَلِفوا عليه آباءَهم، ولا أهواءَ النَّاس وَرِضاهُمْ، فكان اتِّباعُهم رضوانَ اللهِ سَبَبًا في دوامِ إرْشادِهِمْ وتوفيقِهم، وبِقَدْرِ ما يكونُ ازديادُ اتِّباعهم، يكون تَوْفيقُهُمْ؛ إذ قُوَّةُ السَّبَبِ تَقْتَضي قُوَّةَ المُسَبَّبِ، والخيرُ يَهْدي إلى الخير، والهُدى يزدادُ بالاهتداء، وهذا الرَّبطُ الشَّرْعيُّ بين التَّوفيقِ والاتِّباع يقتضي الرَّبطَ ما بين ضدَّيْهما: الإعراضِ والخِذْلانِ، وأنَّه بِقَدْرِ ما يكونُ الإعراضُ عنِ الهُدى، يكون الخِذْلانُ والحِرْمانُ، والشَّرُّ يَدْعو بَعْضُهُ إلى بَعْضٍ، والسَّيِّئةُ تَجُرُّ السَّيِّئَةَ، وقَدْ أَفادَ تَخْصيصُ التَّوفيقِ بأهل الاتِّباع، وجَعْلُ التَّوفيقِ مُسَبَّبًا عنه بما في صِلَةِ الموصولِ منَ التَّعليل في قولِه تعالى: ﴿مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ﴾[2].

تنزيهُ اللهِ ﷻ عنِ النَّقائصِ التي وصفَه بها اليهودُ والنَّصارَى

دلالةُ وَضْعِ المُظْهَرِ مَوْضِعَ المُضْمَرِ في قَوْلِهِ: ﴿سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾:

فالسَّلامُ اسمُه تعالى، وُوُضِعَ مَوْضِعَ المُضْمَرِ رَدًّا على اليهودِ والنَّصارَى الواصفين له سبحانَه بالنَّقائصِ تعالى عمَّا يقولون عُلوًّا كبيرًا، والمُرادُ حينئذٍ بِسُبُلِهِ تعالى شرائعُهُ سبحانَه التي شَرعَها لعبادِه[3].

(1) أبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 3/18، والآلوسّي، روحُ المعاني: 33/269.
(2) ابن باديس، مجالس التَّذكير، ص: 331.
(3) الآلوسّي، روحُ المعاني: 3/269.

سِرُّ الاستعارةِ في التَّعبيرِ عنِ الدِّين الحقِّ بسبيلِ السَّلام:

مَدْحُ سالكِ هذه الطَّريقِ التي تُوصِلُهُ إلى أَمْنه ونَجاتِهِ

وقد يُطْلَقُ السَّلامُ مجازًا على الحقِّ، وعلى الدِّينِ؛ فَيكونُ سَبيلُ السَّلَام اسْتِعَارَةً تصريحيّة لِطُرُقِ دِينِ الحَقِّ، بجامع اتّفاقهما في تحقيق السّلامة؛ حيث لَا خَوْفَ عَلَى السَّائِرِ فِيهَا[1]، وفيه مَدْحٌ لِسالِكِها، والمُرادُ أنَّه تعالى يَدُلُّ من أطاعَه على طريق نَجاته، وسبيلِ أَمْنَتِه؛ لأنَّ طاعَتَهُ تعالى إمامُ السَّلامَةِ، وطريقُ الاستقامة، فَمَنِ اتَّبَعَ قِيادَه نجا، ومن تَقَاعَسَ عَنْهُ ضَلَّ وغوَى[2].

سِرُّ الاسْتِعَارَةِ في تَشْبيهِ الضَّلَالِ بالظُّلُماتِ والهُدَى بالنُّورِ:

التَّنْفيرُ مِنَ الكُفْرِ وتَبْشيعُ صُورَتِهِ، والتَّرْغيبُ في الإيمانِ وتزيينُ صُورَتِهِ

فالظُّلماتُ هُنا لم تُسْتَعْمَلْ بمعناها الحَقيقيِّ الذي هو خلافُ الضِّياء؛ إنَّما اسْتُعيرتْ لِلْكُفْرِ والضَّلالِ؛ إذْ شَبَّهَ الكُفْرَ بالظُّلماتِ، ثُمَّ حَذَفَ المُشَبَّهَ واسْتُعيرَ لَهُ اللَّفْظُ الدَّالُّ على المُشَبَّهِ بِهِ؛ وهو ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾، والجامعُ بينهما التَّخَبُّطُ والضَّياعُ وعدمُ الاهتداء في كلٍّ منهما؛ فالظُّلُماتُ حاجبةٌ لِلْأَبْصارِ عن إدراكِ الأشياء وإثباتِها، وكذلك الكُفْرُ حاجبٌ أَبْصارَ القُلوبِ عن إدْراكِ حقائِقِ الإيمانِ والعِلْمِ بِصِحَّتِهِ وصحَّةِ أَسْبابِهِ، وكذا في كلمةِ ﴿ٱلنُّورِ﴾؛ فَهِيَ أيضًا لم تُسْتَعْمَلْ في معناها الحقيقيِّ؛ الذي هو خِلافُ الظُّلمةِ، إنَّما استُعيرتْ للإيمان؛ بجامع الاهتداءِ والوضوحِ في كلٍّ مِنْهُما[3].

وفي النَّظمِ القُرآنيّ إذا ذُكِرَتِ ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ وقد استُعيرتْ للكفر، قُرِنَ معها ما يُقابِلُها، وهو استعارةُ ﴿ٱلنُّورِ﴾ للإيمان، كقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٥٧﴾ [البقرة: 257].

وقولِه: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/151.
(2) الرَّضّي، تلخيص البيان: 2/130.
(3) ابْنُ جَرير، جامع البيان: 6/424، والدِّرَّة، تفسير القرآن الكريم: 3/57.

[إبراهيم: 1]، وقولِه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦٓ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [الحديد: 9].

بلاغةُ اقترانِ الاستعارتَيْن:

بيانُ كَمالِ قُدْرَتِهِ ﷻ وكَمالِ فَضْلِهِ على عبادِه بهدايتِهم

والسِّرُّ البلاغيُّ في اقترانِ استعارةِ الظُّلمات باستعارةِ النُّور في قولِه تعالى: ﴿يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾؛ لأنَّ الإخراجَ: فَصْلُ شَيْءٍ مَحْوِيٍّ عَنْ حَاوِيهِ، فَهُوَ هُنَا مُسْتَعْمَلٌ لِإِنْشَاءِ شَيْءٍ مِنْ شَيْءٍ[1]؛ فالضَّالّون في الضَّلال مُنْغَمِسونَ يُحيطُ بِهِم من كلِّ جِهَةٍ، يحجبُ عنهم الحقَّ؛ وإخراجُهم من هذا الضَّلال فيه مشقَّةٌ لا تَخْفى، وهو لا يكون إلا بِقُدْرَةٍ إلهيَّة عَظيمَةٍ؛ ولهذا علَّق اللّه تعالى هذا الإخراجَ بإذْنِه، فلا يكونُ إلا بتوفيقِه وقدرتِه، فإذا أُخرجوا منَ الضَّلال، فسيُنقلون إلى مكانٍ آخرَ، هو الهُدى أو الإيمانُ؛ لذا قُرن بَيْنَهُما بالذِّكر؛ والتَّعبيرُ عن ذلك المعنى بهذا الأسلوبِ لبيانِ كَمالِ قُدْرَتِهِ جلَّ وعَلا وكمالِ فَضْلِه، ولبيانِ أنَّه لا هَادِيَ إلا هو ﷻ، والسِّرُّ أيضًا في اقترانِهِمَا؛ لِيَقِفَ المُتَلَقِّي أَمامَ البَوْنِ الشَّاسِعِ بين الصُّورتَيْن؛ صُورَةِ الكُفْرِ وكأنَّه الظُّلماتُ بِوَحْشَتِهَا وتَخَبُّطِ السَّالِكِ فيه وضياعِه، وصورةِ الإيمان وكأنَّهُ النُّورُ بوضوحِه واستبانَةِ الطَّريقِ مَعَهُ، وما يَحْصُلُ من ذلك مِنْ نُفورٍ مِنَ الكُفْرِ، ورغبةٍ في الإيمان، فَلِلتَّنْفيرِ مِنَ الكُفْرِ وتَبْشيعِ صُورَتِهِ، والتَّرغيبِ في الإيمان وتزيينِ صُورَتِهِ قَرَنَ بَيْنَهُمَا في الذِّكر على هذه الصُّورة[2].

وجهُ جمْعِ الظُّلماتِ وإفرادِ النُّورِ:

بيانُ أنّ طريقَ الحقِّ واحدٌ؛ إذ مردُّه إلى الله، وطرقَ الباطلِ متشعّبةٌ

لِلْمُفَسِّرينَ في العدول عن إفراد كلمةِ ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾، والإتيان بها جَمْعًا؛ وفي المُقابِلِ أُفْرِدَتْ كلمةُ ﴿ٱلنُّورِ﴾، توجيهاتٌ، مِنْهَا: أَنَّ جَمْعَ ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ باعتبار تعدُّدِ معانيها؛ إذِ المرادُ: ظلمةُ الكفر، وظلمةُ

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 2/68.

(2) مريم العبيد، بلاغة الاقتران في القرآن الكريم، ص: 193.

النّفاق، وظلمةُ العناد، وظلمةُ الحيرةِ، وظلمةُ التّقليدِ، وظلمةُ يومِ القيامة، أو المرادُ ظلمةٌ شديدةٌ، كأنّها ظلماتٌ متراكمةٌ[1]، أو لتعدّد طرقِ الضَّلال وأشكالِ الكفر؛ وفي ذلك دلالةٌ على أنَّ طرقَ الكُفْرِ والبدعةِ كثيرةٌ؛ فجُمعت ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾، وفي المقابل أُفرد ﴿ٱلنُّورِ﴾؛ لأنَّ طريقَ الحقّ واحدةٌ[2]؛ ولهذا وحّدَ اللّه تعالى لفظَ النُّور، وجمعَ الظُّلماتِ؛ لأنَّ الحقَّ واحِدٌ، والكُفْرَ أجناسٌ كثيرةٌ، وكُلُّها باطلةٌ؛ كما قال: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام: 153]، إلى غيرِ ذلك منَ الآيات التي في لفظها إشعارٌ بتفرُّد الحَقِّ، وانتشارِ الباطل وتَفَرُّقِهِ وتَشَعُّبِهِ[3].

ويُحْتَمَلُ أنَّ ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ جُمِعَتْ؛ لِلإشارَةِ إلى أنَّ المُكَذِّبَ لَا يَنْتَفِعُ بِبَصَرٍ ولا بَصيرَةٍ، وذلك أنَّهم لمَّا لم ينتفِعُوا بحياتهم، ولا بأسماعِهم، ولا بِنُطْقِهِمْ، ولا أبصارِهم، ولا عقولِهم، كان كلُّ ذلك عدمًا كالظُّلمات[4].

وقَدْ يُرادُ بالظلمات أيضًا الأَسْبابُ المؤدِّيَةُ إلَى الكُفْرِ، كالجَهْلِ واتِّباعِ الهَوى وقَبولِ الوَساوِسِ والشُّبَهِ، وبالنُّور الهُدى المُوصِلُ إلَى الإيمانِ[5].

فَهِيَ مُتعدِّدَةٌ بِتَعَدُّدِ الحُجُبِ المُقْتَضيةِ لها، وهي كثيرةٌ جدًّا، لكلِّ حجابٍ ظُلْمَةٌ خاصَّةٌ، ولا تَرْجِعُ الظُّلماتُ إلى النُّورِ الهادي ﷻ أصلًا لا وصفًا، ولا ذاتًا، ولا اسمًا، ولا فعلًا، وإنَّما تَرْجِعُ إلى مفعولاته سبحانَه، فهو جاعلُ الظُّلماتِ ومفعولاتها مُتَعَدِّدَةً متكثرةً، بخلاف النُّورِ، فإنَّهُ يَرْجِعُ إلى اسمه وصفته ﷻ، تعالى أن يكون كَمِثْلِهِ شيء وهو نُورُ السَّماوات والأرض[6].

سِرُّ الاستعارة في تَشْبيهِ الإسلامِ بالصِّراطِ المُسْتَقيمِ:

التَّنْبيهُ على وضوحِ الطَّريقِ وعَدَمِ اشتباهِهِ

وَالصِّرَاطُ المُسْتَقِيمُ مُستعارٌ للإيمَان[7]؛ لأنَّ الصِّراطَ يُطلقُ في الأصل على الطَّريق الحِسِّيِّ المخصوص، فاستعمالُهُ هُنا لطريق الإسلام استعارةٌ تَصريحيَّةٌ أصليَّةٌ؛ حيث شُبِّهَ دينُ الإسلام

(1) تَفْسيرُ النَّسَفيّ، أنوار التَّنزيل: 2/502، والدُّرَّة، تفسير القرآن الكريم: 3/57.
(2) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/58.
(3) ابنُ كَثيرٍ، تَفْسيرُ القرآن العظيم: 1/685.
(4) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 7/108.
(5) القُونَويّ، حاشيةُ القُونَويِّ على البيضاوي: 7/427.
(6) ابن القيم، طريق الهجرتين، ص: 177، وابن القيم، بدائع الفوائد: 1/119.
(7) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/151.

بالطَّريق المخصوصِ الحسِّيِّ، والجامعُ بينهما: أنَّ كُلًّا مِنْهُمَا مُوَصِّل للمقصودِ[1]، مع الاستقامةِ في كلٍّ منهما، فصُرِّحَ باسم المُشَبَّه به وطُوِيَ ذكرُ المشبَّهِ، على طريقة الاستعارة التَّصْريحِيَّةِ، وفائدةُ الاستعارةِ ههنا: التَّنْبيهُ على وضوحِ الطَّريقِ وعَدَمِ اشتباهِهِ؛ إذِ الحِسِّيَّاتُ أَظْهَرُ في التَّصوُّرِ مِنَ العقليَّاتِ.

والهدايةُ إلى الصِّراط المستقيم هي عينُ الهدايةِ إلى سُبُلِ السَّلام، وإنَّما عُطِفَتْ عليها تنزيلًا للتَّغايُرِ الوَصْفيِّ مَنْزِلَةَ التَّغايُرِ الذَّاتيِّ، كما في قولِه تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾﴾ [هود: 58][2].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الأهل والآل:

الآلُ خاصَّةُ الرَّجلِ وقرابتُه، والأهلُ أعمُّ

الآلُ: خاصّةُ الرَّجلِ من جِهَةِ القرابةِ أو الصُّحْبةِ، فيقال: آلُ الرَّجل لأهله وأصحابِه، أمَّا الأهلُ فيكونُ من جهة النَّسب، كأهل الرَّجل لقرابتِه الأَدْنين، ويكونُ للاختصاص، كأهل البصرةِ وأهلِ العلم، ولا يقال: آلُ البصرة وآلُ العلم[3].

ثمَّ إنَّ لفظَ الآل مختصٌّ بأُولي الخطرِ، كالأنبياءِ والملوكِ ونحوِهم، فيُقال: آلُ الرَّجُلِ له نفسِه، ومنه قولُه تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ ءَالِ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ [الصَّافات: 130]، وآلُه لأهله وأقاربِه، كقول القائل: (اللهمَّ صلِّ على محمد وعلى آل محمد)، وآلُه لمن تبعه، كقولِه: ﴿أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر: 46]، وأمَّا إن ذُكِرَ الرّجل ثم ذُكِرَ آلُه لم يدخل فيهم[4].

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 1/92.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 3/19، والآلوسّي، روح المعاني: 3/270.
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 281.
(4) ابن القَيِّم، جلاء الأفهام، ص: 226. وقراءة (ءَالِ يَاسِيَن) قرأ بها نافع وابن عامر ويعقوب.

ولا يضافُ (آل) إلى الأرذالِ ولا المكانِ والزَّمانِ، ولا إلى الحَقِّ ﷻ، فلا يُقال آلُ الحائِكِ وآلُ مِصْرَ وآلُ زَمانٍ وآلُ اللّه تعالى؛ بخلاف الأهلِ في جميع ما ذُكِرَ[1].

المجيء والإتْيان:

المَجيءُ إتْيانٌ مُحَقَّقٌ

الإتْيَانُ مَجِيءٌ بِسُهُولَةٍ، وهو بِدايَةُ المَجِيءِ[2]، فَإِذَا اكْتَمَلَ وَبُلِغَ مَقْصِدُهُ مِنْ مَكَانٍ أَوْ زَمَانٍ أَوْ شَخْصٍ أَصْبَحَ مَجِيئًا، فَالمَجِيءُ هو إتْيَانٌ مُحَقَّقٌ بَعِيدٌ عَنْ عَوَامِلِ النَّقْصِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ [الأعراف: 129]، فَالإتيَانُ بِدَايَةُ المَجِيءِ زَمَانِيًّا أَوْ مَكَانِيًّا، وَقَدْ لَا يَتِمُّ فَلَا يَكُونُ مَجِيئًا، أَمَّا المَجِيءُ فَهُوَ إِتْيَانٌ مُحَقَّقٌ قَرِيبٌ زَمَانِيًّا وَمَكَانِيًّا[3].

أَمَّا فِي بَابِ الأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ فَمَنْ تَكَلَّمَ عَنْ صِفَةِ المَجِيءِ وَالإِتْيَانِ مِنْ مُحَقِّقِي أَهْلِ السُّنَّةِ[4] يَجْعَلُهُمَا بِمَعْنًى وَاحِدٍ، وَيَسْتَدِلُّ لَهُمَا بِالأَدِلَّةِ نَفْسِهَا دُونَ تَفْرِيقٍ؛ فَالفَرْقُ السَّابِقُ غَيْرُ وَارِدٍ هُنَا فِي بَابِ الصِّفَاتِ، فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ [الأنعام: 158] كقوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر: 22].

الكِتْمَان والإخْفاء:

الكِتْمَانُ يَخْتَصُّ بِالمعاني والإخْفاءُ أَعَمُّ

الكتمانُ هو السُّكوتُ عن المعنى، وقولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ [البقرة: 159]؛ أي: يَسْكُتُونَ عن ذِكْرِهِ، والإخْفَاءُ يكونُ في المعاني، كقولِه تعالى: ﴿يُخۡفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبۡدُونَ لَكَۖ﴾ [آل عمران: 154]، وفي غيره منَ الأمورِ الحسّيّةِ، كقولِه تعالى: ﴿تَجۡعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبۡدُونَهَا وَتُخۡفُونَ كَثِيرٗاۚ﴾ [الأنعام: 91]، والشَّاهدُ أنَّك تقول:

(1) التهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم: 1/72.
(2) الرَّاغِب، المُفردات: (أتى).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (أتو/أتى).
(4) ابْنُ تَيْمِيَّة، مَجْموعُ الفَتاوى: 5/458، وابْنُ القَيِّم، الصَّواعِقُ المُرسَلَة: 3/1099.

أخفيتُ الدِّرْهَمَ في الثَّوب، ولا تقولُ: كَتَمْتُ[1]، فالكتمانُ يختصّ بالمعاني، كالأخبارِ والأسرارِ، والإخفاءُ يكونُ في الأمور الحسّيَّةِ.

الرِّضوان والمرضَاة:

الرِّضوان: بكسر الرَّاء وضمِّها، اسمٌ مُبالغةٍ في مَعْنى الرِّضا، فهو الرِّضا الكثيرُ، ولمَّا كان أعظمُ الرِّضا رضا اللّه خَصَّ الرِّضوانَ في القرآن بما كان منه تعالى[2]، من حيث إنَّ رِضاهُ أعظمُ الرِّضا، قال تعالى: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: 72][3].

الرِّضوانُ هو أعظمُ الرِّضا وأكبرُه، ولا يكونُ إلا منَ الله

أمَّا المَرْضاةُ فتأتي منَ اللّه ومن غيره، فَلَيْسَتْ مُخْتَصَّةً باللّه تعالى، وإنَّما تأتي للّه تعالى ولِغَيْرِهِ، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: 207]، وقال تعالى: ﴿تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ﴾ [التَّحريم: 1]، فالرِّضوان خاصٌّ باللّه تعالى، والمرضاة عامَّةٌ.

الطَّريق والسَّبيل والصِّراط:

الطَّريقُ هُوَ كُلُّ مَا يَطْرُقُهُ الطَارِقُ مِنَ النَّاسِ؛ مُعْتَادًا كانَ أَو غَيْرَ مُعْتادٍ[4]، قال تعالى: ﴿فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾﴾ [طه: 77]، أَمَّا السَّبيلُ فهُوَ الطَّريقُ السَّهْلُ؛ وَأَغْلَبُ ما يَقَعُ في الخَيْرِ، وقَدْ يَقَعُ في الشَّرِ، كَقَوْلِهِ تعالى: ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأنعام: 55]، أَمَّا الصِّراطُ: فهو السَّبيلُ الذي لا اعْوِجاجَ فيهِ ولا التِواءَ.

الطَّريقُ ما يُسْلَكُ، والسَّبيلُ أَسْهَلُهُ، والصِّراطُ أَقْوَمُهُ

فَالفَرْقُ بَيْنَ الطَّريقِ والسّبيلِ أَنَّ الطَّريقَ لَا يَقْتَضِي السُّهُولَةَ واعْتِيادَ السُّلوكِ[5]، أَمَّا السَّبيلُ مِنَ الطُّرُقِ فهو السَّهْلُ المُعْتادُ، والفَرْقُ

(1) العَسْكَرِيّ، الفُروقُ اللُّغَويَة، ص: 287.
(2) الرَّاغِب، المُفْردات: (رضى)، والمَنَاوِيّ، التَّوقيف، ص: 178.
(3) الكَفَوِيّ، الكُلِّيات، ص: 478.
(4) الكَفَوِيّ، الكُلِّيات، ص: 513.
(5) العَسْكَرِيّ، الفُروقُ اللُّغَويَة، ص: 298.

بَيْنَ السَّبيلِ والصِّراطِ أَنَّ الصِّراط لا اعْوِجاجَ فيهِ[1]، قالَ اللّٰه تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: 161]، فَالصِّراطُ أَخَصُّ مِنَ السَّبيلِ، قال تَعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: 153]، والسَّبيلُ أَخَصُّ مِنَ الطَّريقِ[2]؛ وقَدْ يُطْلَقُ كُلٌّ مِنْها على الآخَرِ تَوَسُّعًا.

(1) الكَفَوِيّ، الكُلِّيات، ص: 513.

(2) المَنَاويّ، التَّوقيف، ص: 215.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثامن، سورة النساء من الآية 115 إلى الآية 25 من سورة المائدة
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة النساء من الآية 115 إلى الآية 25 من سورة المائدة [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 8 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-60-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 8 : سورة النساء من الآية 115 إلى الآية 25 من سورة المائدة.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-60-6
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-8115353 بتاريخ 2023/03/22م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»